المشرق

رحلة السائح الروسي دانيال

الى الاراضي المقدَّسة في اول عهد الصليبيين

محاضرة لجناب الوجيه الكسيس بوغوليوبسكي نزيل دمشق

هذه المحاضرة القاها حضرتهُ في نادي مدرسة الآباء اللازريين في دمشق قبل سنتين فأحببنا ان نمرّها لقرّاء المشرق لما تحتويه من الفوائد التاريخية الجليلة بقلم كاهن روسي يدعى دانيال قدم من بلاده البعيدة ليتبرّك بزيارة الاراضي المقدَّسة بعد فتحها على ايدي الصليبيين بثماني سنوات فقط فزار اخصَّ امكنتها ووصفها بطريقة شائقة. وهذه الرحلة طُبعت اوّلاً في بطرسبورج سنة ١٨٦٣ بأصلها الروسي ثم نقلها بترجمتها الفرنسويَّة جمعية الشرق اللاتيني سنة ١٨٨٩ تحت عنوان Itinéraires Russes en Orient (المشرق)

نظر عمومي عن روسية في اوائل القرن الثاني عشر

كان الروس قد تنصَّروا على عهد ملكهم ڤلاديمير سنة ٩٨٨ م (١ . وما كادوا يكتحلون بنور الايمان حتى نزعت قلوبهم الى المواطن التي تقدَّست بمولد وحياة وموت السيد المسيح . فأحبُّوا ان يعاينوها ويتبرّكوا بزيارتها معتبرين لها كوطنهم الثاني الروحي

وقد ذكر التاريخ تقاطرهم الى فلسطين واورشليم منذ القرن الحادي عشر حتى اصبح مذ ذاك الحين حجهم اليها كشيء معتاد . ومما صبر على الزمان من آثارهم اغاني روحيَّة شاعت بين العموم تهيجُ بذكر اورشليم وآثارها الدينيَّة

١) (راجع في المشرق (٧[١٩٠٤]: ٧٥٥ و ٧٩٠) مقالة الاب لونغنك التي عنوانها: روسية سابقًا وحاضرًا)

وفي القرن الثاني عشر بعد فتح الصليبيين الاراضي المقدَّسة زادت رغبة الشعب الروسي الى زيارتها وتوفَّر عددهم جدًّا فكنت ترى كثيرين منهم يهجرون نساءهم واولادهم واقاربهم واملاكهم قاصدين اورشليم ومزارات فلسطين

وقد بلغ الامر الى غاية تخوُّف الرؤساء لسببها ضررًا يحلّ بالبلاد فتُهمل الفلاحة والزراعة وتسود المجاعة على الاهلين. ومن ثمَّ اتخذ الاساقفة يحضُّون الكهنة على صَرْف الشعب عن هذه الزيارات البعيدة التي تعرِّض الوطن الى آفات شتى ومَنْعهم عن ابراز النذور لمباشرتها

لكنَّ هذه الاوامر وفقًا للمثل القائل «ان الممنوع متبوع» لم تبلغ غايتها ولاسيما انَّ الشعب كان يرى الاكليروس القانوني والعلماني معًا يتجشمون هذه الاسفار فيندفعون الى الاقتداء بآثارهم. منهم رئيس اساقفة نوفوغورود المدعو يوحنا فانَّهُ بعد نشره رسالةً في معارضة الزوَّار سار هو الى زيارة اورشليم — محمولًا على زعم بعض المتفكهين — على كتف شيطان غلب الاسقفُ تجربتَهُ فأمرهُ ان يحمله الى المدينة المقدَّسة ذهابًا وايابًا فاضطرَّ ابليس الى مجاراته

فكانت جماهير الزوَّار تقطع المسافات الطويلة لا تثنيها عزمها المشقَّات والاخطار وكان الفقراء منهم يستعطون في طريقهم امَّا الاغنياء فتسير حاشيتهم في خدمتهم. ولم يحجّ كلّ هؤلاء الزوَّار لغاية شريفة مجرَّدة لوجه الله فانَّ منهم كانوا صعاليك يخرجون من وطنهم تَلَهِّيًا وفضولًا ويعيشون بالبلاد سلبًا ونهبًا

أمَّا الطريق التي كان الزوَّار ينهجونها من روسيَّة الى فلسطين فكانوا عادةً يجتمعون في مدينة كياف ثمَّ يركبون سفنًا خفيفة فيقطعون نهر دنيپر (Dnieper) ما لم تصدُّهم القبائل التي على ضفَّتي النهر فيقضي عليهم اذ ذاك ان يسيروا مشيًا الى بلغارية ومنها الى القسطنطينية

وكان معظمهم في القسطنطينية يستأجرون مراكب شراعيَّة فيبحرون الى يافا من بحر مرمرا الى الارخبيل ثمَّ الى بحر الشام سائرين قريبًا من سواحل الاناضول وشمالي سوريَّة يتموَّنون من مدنها ويستريحون الابصار بآثارها التقويَّة. على ان هذه الطريق البحريَّة لم تَخلُ من المخاطر سواء كان من جهة انواء البحر ام من جهة قرصان الاسلام. فكم غرق منهم بهيجان البحر او كم قُتل غيرهم او استعبدوا فبيعوا

في اسواق العبيد في مصر والجزائر !

وكان غيرهم استدراكاً لهذه الموانع يخاطرون طريق البرّ فيقطعون انحاء آسية الوسطى ثمّ بلاد سوريّة الشماليّة او الساحليّة يذوقون في سفرهم الطويل ضروب المشاقّ والاتعاب فضلاً عمّا يلاقونهُ من قطّاع الطرق وعصابات اللصوص . وذلك ما جعل زيارة القدس كفعل توبة للتكفير عن مآثم سابقة لاسيما الاغنياء والاشراف الذين اعتادوا في ذلك الزمان اعمال الجور والظلم فكانوا يرون الاستغفار عنها بذلك السفر المضنك الشاقّ

ومع كثرة الروسيين الذين تكلّفوا زيارة الاراضي المقدّسة قلّ ما كتبوا عنها . ولا غرو فانّ معظمهم كانوا من رعاع الناس وسفلة الشعب مع قلة انتشار التعليم في زمانهم

وكانوا اذا انتهوا من زيارتهم وعادوا الى وطنهم يتهافت الناس الى اكرامهم ويصغون بكل شوق الى ما يروونهِ الزوّار من الاخبار الصحيحة او المخترعة . وهذا ما يجعل قيمة كبيرة للرحلة التي اردنا هنا وصفها التي سمى بكتابتها صاحبها دانيال بكل صدق وبكل سذاجة

التعريف بالرحالة دانيال

دانيل صاحب هذه الرحلة كان راهباً وهيغومانا اي رئيساً على بعض اديرة وطنهِ روسية وقد نسب من اخبارهِ غير القليل الذي ذكرهُ عن نفسهِ في اثناء رحلتهِ وهو في الغالب عبارات دالّة على تواضعهِ وتحقيرهِ لشخصهِ كأنهُ يريد ان القارئ ينسى الكاتب فلا يفكر إلّا في عظمة الاماكن الشريفة التي يصفها

ويلوح من كلامهِ انهُ كان رجلاً دمث الاخلاق عريقاً في التقى محباً لوطنهِ مدققاً في اوصافهِ سليم الذوق راجح العقل لكنهُ لسذاجة ايمانهِ يروي ما يسمعهُ من العموم عن كل مزار دون انتقاد لصحتهِ . وهو في الغالب يذكر ما جاء عن كلّ مكان في الكتب المنزلة . ومما افادنا عنهُ غيرهُ من الكتبة انهُ ولد في روسيّة الجنوبية وانّ رحلتهُ الى القدس الشريف تمّت من السنة ١١٠٦ الى السنة ١١٠٨ كما يستفاد من

اخباره عن الصليبيين واحوالهم بعد فتحهم لها بزمن قليل .

وكانت روسيَّة في عصره في حالة حرجة فكان امراؤها يتحاربون ويتنازعون فزادت القلاقل واستفحل الشر واصبحت البلاد كساحة وغى تقتحمها القبائل المقيمة في حدود الدولة . وكانت كياث نفسها عاصمة روسية معرَّضة لآفات الفوضى حتى انَّ اهلها أعلنوا بعزمهم على مهاجرتها ليلتجئوا الى مملكة الروم . وانتهز كثيرون هذه الفرصة لمغادرة البلاد ليسيحوا في الاصقاع البعيدة . وكانت سوريَّة وفلسطين حين ذاك في هدوء وراحة بعد فتح الصليبيين للقدس وسواحل الشام فأموا اليها فرارًا من نكبات بلادهم وطلبًا لبركة تلك المزارات الشهيرة . ولعلَّ هذه الغايات دفعت ايضًا السائح دانيال الى مباشرة سفره

رحلته من القسطنطينيَّة الى اورشليم

يفتتح السائح دانيال رحلتهُ بكلام يشعر بتواضع نفسهِ ويذكر الغاية التي دفعتهُ لهذا السفر طلبًا لرحمة الله وغفران خطاياه مصرِّحًا بانهُ لا فضل لهُ بهذا العمل لانَّ قداسة الحياة هي قبل كلِّ ترضي الله . وانَّما اراد ان يدوِّن اخبار سفره لكي يبعث ذكرها في قلوب مواطنيه محبة الله فينالوا بذلك اجرًا كالزوَّار انفسهم . ويؤكد لهم انَّهُ يصف الامور كما عاينها واختبرها ليس بسرعة كغيره من السيَّاح بل بطول الاناة والتروِّي اذ قضى ١٦ شهرًا في فلسطين

ثم يذكر طريقهُ من القسطنطينيَّة الى اورشليم بحرًا مدوِّنًا المسافات التي قطعها من مكان الى آخر على الكنيسة الروسيَّة في زمانهِ التي تختلف عن اقيستهم الحاضرة . وهو اذا مرَّ بمكان يذكر خصوصًا ما يجدهُ من الآثار المسيحيَّة كالكنائس ومن اشتهر في تلك الامكنة من الرسل والقديسين والشهداء وينقل ما يسمعهُ من الاهالين عن اخبارهم دون تمييز شيئًا من سنيها فهذه التذكارات الروحيَّة كانت تفعم قلبهُ سرورًا حتى انهُ يصرِّح عن نفسهِ وعن رفقتهِ قائلًا : « انَّنا نسير بلا الفرح حيثما نحلّ »

ومع ذكرهِ لتلك الآثار التقويَّة تراهُ لا يهمل ما لتلك الامكنة من الخواصّ التاريخيَّة او التجاريَّة . ففي أوس يُشير الى رسالة القديس يوحنَّا الحبيب والى المجمع المسكوني الثالث ضدَّ نسطوريوس . ويذكر عن جزيرة ساموس خصب تربتها

وفرة سمكها . وعن جزيرة «كوس» غناها بالمواشي . وقد عاين منجم الكبريت الفاخر الذي يُباع في جزيرة تياوس . وعند مروره في رودس يروي حلول الامير الروسي «اوليغ» في ربوعها مدة سنتين . وقد اتّسع في وصف صاقس (Chio) وصَنَع المصطكى الذي اشتهرت به الجزيرة وكيفية استحضاره مع ذكر خمرها الطيبة . ومما روى عن قبرس انّ في مدنها عشرين اسقفاً وانّ فيها تنبت اشجار اللُبان والبخور

وبعد عدة اسابيع بلغ اخيراً الانبا دانيال مينا يافا ولم يلبث أن سار الى اورشليم ماراً بأدَ حيث أكرم الشهيد الكبير القديس جرجس في كنيسته هناك واسرع الخروج منها خوفاً من غزوات اهل عسقلان المسلمين الذين يترصّدون الزوّار ليحاربوهم ويقتلوهم . وقد وجد عناء عند تَرقُله جبال اليهودية وهو لم يعهد في وطنه غير الصحاري حتى لاحت له اخيراً وعلى بغتة المدينة المقدسة بكل بهائها تُحدق بها الرُبى والتلال وخصوصاً جبل الزيتون فتخلب البصر بمحاسنها . ثم يصف ما خامر قلبهُ من العواطف عند نظره القدس الشريف وما في وسطه واطرافه من الابنية الجليلة ولاسيما كنيسة القيامة وقبر المسيح . فترجّل هو ورفقتهُ الزوّار وسجدوا والدموع تترقرق من عيونهم ذاكرين ما جرى في هذه المدينة من الاسرار الالهية

اورشليم ومزاراتها

نزل سائحنا الروسي ضيفاً في دير القديس سابا وأقام فيه ١٦ شهراً متنقلاً الى كل الامكنة التي ورد ذكرها في الاسفار المقدسة ولاسيما الانجيل الشريف . ولم تخلُ تلك الزيارات من بعض الخطر اذ لم يزل المسلمون في جوار مملكة الصليبيين يعذّبون المسيحيين بضروب النكبات لكنّ الانبا دانيال كان يتحيّن الازمنة الموافقة لئلّا يفوتهُ شيء من المزارات المقدسة . وكان ذا مالٍ واقر فصرَفهُ في سبيل زياراته وفي اقتناء الذخائر التقويّة ليعود بها الى وطنه . ولحسن طالعه وجد في الدير شيخاً مهيباً كان يعرف المدينة المقدسة وجيرتها حقّ المعرفة فقدّم نفسهُ للهيغوماس ليكون دليلهُ في كل انحاء المدينة

فزار اوّلاً كنيسة القيامة واستقرى كلّ آثارها وما تحتوي عليه من المشاهد المختلفة متتبعاً ما يرويهِ الانجيل عن كلٍّ منها ويتسع بالخصوص في وصف قبر المسيح

وما يزينهُ من الحلي ثمَّ يصعد الى الجلجلة ويعدّد آثارها وما يُرى فيها من شقّ الصخر الذي سبَّبتهُ الزلزلة الحادثة عند موت المسيح ثم يذكر قبر آدم وسُرَّة الارض التي يزعمون انَّها مركز كرتنا الارضيَّة وهو في كل ذلك يروي ما كان يردّدهُ اهل تلك الازمنة وشاع في كتبهم حتى في قصائد «دانتي» وربَّما نقلوهُ عن تآليف مصنوعة لا يوثق بها كقولهِ عن جمجمة آدم المقبورة تحت الصليب وكيف جرى اليها دمُ المسيح فغسلها لمَّا انشقت الصخرة بفعل الزلزلة التي وقعت عند موتهِ

ومِمَّا زارهُ في اورشليم من المعاهد القدسية كنيسة علِّيَّة صهيون التي فيها جرى العشاء السرّي ورُسم القربان المقدَّس وحلّ الروح القدس على التلاميذ. ويزعم انَّ هذه العلية كانت دارًا للقديس يوحنَّا الحبيب وانَّ في غرفةٍ بقربها كانت وفاة البتول العذراء مريم. ومِمَّا قالهُ عن تلك الكنيسة انَّها كانت مزيَّنة بالفسيفساء تعلوها قبة راكزة على عَمَد

ولم تَفُتهُ زيارة ضواحي اورشليم كجبل الزيتون وجثسيمانية ومكان صعود الرب وبركة سلوام وقبر العذراء مريم قبل انتقال جسدها الطاهر الى السماء ومغارة بطرس الرسول حيث بكى على خطيئتهِ

ومِمَّا اتَّسع في وصفهِ حفلة سبت النور وما جرى يومئذٍ في كنيسة القبر من ازدحام الجمهور لمعاينة النار المقدَّسة التي على زعمهِ كانت في الحقيقة وقودًا سماويًّا. ومِمَّا اخبرهُ انَّ ملك اورشليم يودوان او بَغدوين حضر بنفسهِ تلك الحفلة الدينيَّة ونال سائحنا دانيال من لطفهِ ان يرافقهُ ويجلس بقربهِ فشاهد اتقاد النور العجيب فلا يشكّ ان ذلك حدث باعجوبة باهرة (١

ادبا دانيال في النهر وفي بيت لحم وحبرون

ولم يكتفِ السائح دانيال بزيارة اورشليم وضواحيها بل اراد ان يسير الى بحيرة

(١) مهما كان من امر ذاك النور في زمن الصليبيين إلَّا اننا بيَّنا مرارًا انَّ النور المذكور الذي يُرى سنويًّا في كنيسة القبر على يد بطريرك الروم هو نور طبيعي لا اثر فيهِ لاعجوبة (راجع المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ١٩٣ و٢١٦ وخصوصًا ١٦ [١٩١٣] : ١٨٨-١٩٧

لوط ونهر الاردن فماين الجبل الذي صام فيه الرب اربعين يوماً ثمّ تبطّن الوادي العميق الذي يُطلّ عليه دير القديس سابا حيث ترهّب القديس يوحنا الدمشقي وغيره من كبار النسّاك وزار في طريقه اديارًا أخرى واغتسل في نهر الاردن في نصف ليل عيد الغطاس تذكارًا لعمودية الربّ مع عدد لا يُحصى من الزوّار. ودخل مدينة اريحا ملتفتاً الى ما جرى فيها من الاحداث في أيّام يوشع بن نون وفي عهد السيد المسيح الذي نزل في بيت زكّا

وزار ايضاً بيت لحم ومغارة مولد السيد المسيح وقبّل مذودهُ المقدّس ووصف الكنيسة الجميلة التي اقامتها القديسة هيلانة فوق المغارة وتجوّل في المدينة وذكر شيئاً من تاريخها ومن محاسنها الطبيعيّة. وزار كذلك بيت زكريّا حيث وُلد يوحنّا المعمدان بعد أن حظيت أمّهُ اليصابات بزيارة مريم العذراء. فوجد هناك كنيسةً على اسم الصابغ

وقصد مدينة حبرون المعروفة بمدينة الخليل وزار ستديانة ممرا حيث جلس ابراهيم وظهر له الربّ تحت صورة ثلثة شبان. فأراهُ الثالوث الاقدس فرأى ثلثةً وسجد لواحد. ثم نزل الى مغارة مكفيلا حيث قُبر فيها ابرهيم واسحاق ويعقوب ويوسف ووصف ذاك المدفن الذي بقي محجوباً مئاتٍ من السنين لا يُسمح لاحد النظر اليه

زيارة الاردن ودانيال للناصرة والجليل

وتيسّر لسائحنا بعد زمن السفر الى بقيّة الاماكن المقدّسة فرّ بعمواس فوجدها قاعاً صفصفاً بفعل الاعداء. ونزل الى ساحل البحر فرّ بيافا وذكر عجائب الرسول بطرس فيها ثمّ عرّج الى ارصوف وقيصرية وعاين جهات الناصرة فدخل حاضرتها نابلس ورأى بئر يعقوب وزار سبسطية وهو يزعم انّ فيها حُبس القديس يوحنّا المعمدان وقطع رأسه (والصواب انّهُ قُتل في حصن المُغير (Machéronte) شرقي بحر لوط)

ثمّ طاف في جهات الجليل فوصف الناصرة وكنيستها الكبيرة المبنيّة فوق بيت العذراء وشهد مكان بشارة الملاك جبرائيل ومقام الطفل يسوع في اوائل حياته وشبابه. وكذلك ذكر قبر القديس يوسف في مغارة هناك يسيل منها شبه دهن يشفي المرضى. وحلّ ضيفاً في بيت هذا القديس الذي كان الصليبيّون عمّروهُ بعد خرابه فاستقبلهُ الاسقف اللاتيني واكرم وفادتهُ

ثمَّ انتقل من الناصرة الى قانا الجليل ورقي الى قنَّة جبل الطور وصلَّى هناك في كنيسة التجلي وكنيسة النبيَّين موسى واليـاس ثم رحل الى بحر طبريَّة فتبـادر الى فكره ما جرى هنالك من الآيات الباهرة سواء كان في البحيرة ذاتها ام في سواحلها في كفرناحوم وصيداء الجليل وصعد منها الى ينابيع الاردن وتوغَّل في البلاد ما وراء نهر الاردن فزار جرش وبيسان والمدن العشر

وخصَّ هذه البلاد السورية بزيارة فدخل مدينة عكَّا وهي حينئذٍ في ملك الصليبيين وسار شمالًا فمرَّ بجبيل وترقَّى الى جبل الكرمل حتى المكان الذي حكم به ايليَّا على قتل كهنة البعل وواصل مسيرهُ شمالًا فاجتاز بصيـداء ثمَّ ببيروت ذاكرًا اعجوبة ايقونتها لمَّا ضربها بعض اليهود فسال منها الدم وآمن بسببهـا كثيرون فاعتمـدوا. وكذلك اتى بذكر الاخوين يوحنَّا واركاديوس اللذين اتيا الى بيروت ليدرسا فيهـا الفقه (اطلب قصَّتهما في المشرق ١٢ [١٩٠٩] : ٦٩٥ــ٧٠٦) ولم يحبَّ دانيال ان يمرَّ بقرب لبنان دون ان يزورهُ فذكرهُ واشار الى ثلوجهِ الغرَّاء. ولعلَّه اتخدع باسمهِ لبنان فروى انَّ فيهِ ينبت شجر اللُّبان

هذه خلاصة سياحة دانيال الهيغومانوس الروسيّ التي ادرك بها غاية متمنَّاهُ فانفتل راجعاً الى بلادهِ على طريق البحر من يافا الى القسطنطينيَّة لكنَّهُ أُصيب هو ورفقتهُ بمصيبةٍ كانت تتكرَّر في ذلك الزمان فانَّ القرصان المسلمين ادركوا سفينتهم عنـد جزيرة بتراس في بحر اليونان فهجموا على مركبهم ونهبوا ما وجدوهُ وسلبوا الركَّاب اموالهم. وكأن دانيال لا يحسب حساباً كبيرًا لهذه البليَّة اذ نجا من ايديهم سالمًا بعد النعمة التي نالها بزيارته قبر المسيح

ولمَّا رجع الى وطنهِ أتحفنا بهذه الرحلة الشائقة التي هي اوَّل اثر من جنسها لكاتب روسيّ. ولنا بعدهُ اسفار غيرها باشرها المؤمنون الروسيُّون وكأنها تُشعر بايمـان حيّ كان يبعث في القلوب الرغبة الجمَّة الى الاراضي المقدَّسة فيتجشَّمون المخاطر ولا يبالون بما يقاسونهُ من المشقَّات حبًّا بربِّ فداهم بدمهِ الذكي ليشاهدوا آثار محبَّتهِ نحو البشر. وبـذلك كانوا يخالفون الروح العصريّ الذي يفضِّل قبل كلّ حبّ الارض والمنافع الزمنيَّة على حبّ العالم العلوي وطلب الخيرات الروحية السرمدية